

مظاهر العمران بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني

The features of Urbanisation in Algiers during the Ottoman Era

1- عبد الفتاح بن جدو*، جامعة زيان عاشور – الجلفة (الجزائر)

benjeddou2511@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022 /11/08 تاريخ القبول: 2022 /12/14 تاريخ النشر: 2022 /12/31

ملخص:

ألحقت الجزائر مطلع القرن السادس عشر بالدولة العثمانية ، و اتخذت مدينة الجزائر عاصمة لكامل البلاد بعد أن كانت مدينة صغيرة قليلة الأهمية ، هذا الوضع السياسي الجديد أثر بشكل واضح ومباشر على تطور مظاهر العمران بالمدينة ، وصارت واحدة من أكبر وأشهر مدن الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، ونحن نهدف في هذه الدراسة إلى إعطاء نظرة شاملة على عمران المدينة في العهد العثماني ، وذلك من خلال وصف مختلف منشآتها وعمائرهما ونخص بالذكر منشآت الميناء ، التحصينات والمنشآت العسكرية والدفاعية ، المنشآت الدينية ، المنشآت المائية ، المناطق السكنية ومختلف المرافق العمومية كالحمامات ، الفنادق ، المقاهي ... ، وعموما فإن حركة البناء والتعمير بمدينة الجزائر قد عرفت انتعاشا وازدهارا كبيرا كما عرفت منحى تصاعديا غالبا خلال الفترة محل الدراسة ، وهو ما تؤكده مختلف المصادر المحلية والأوربية التي تعرضت لوصف المدينة ، وسنقوم بتتبع بعضها ونقل ما ورد فيها لتأكيد هذا الكلام .

كلمات مفتاحية: عمران ، مرافق عمومية ، مدينة الجزائر ، العهد العثماني .

Abstract :

This research aims to provide an overview of the urbanisation of Algiers by describing its various buildings which made it, since the sixteenth century, one of most famous cities in the Mediterranean Sea. We will talk, in particular, about the port, fortifications and the defensive installations, religious installations, hydraulic structures, the residential areas and the various public facilities such as hammams, hotels and cafés. In general, the movement of urbanisation in Algiers witnessed a great recovery and prosperity, as it knew an upward trend during the ottoman era , which is confirmed by the different local and European sources that described the city.

Key words : Urbanisation , public facilities , Algiers , Ottoman era .

*-المؤلف المرسل

مقدمة :

تجمع كل المصادر التي تحدثت عن مدينة الجزائر خلال العهد العثماني على أن حركة البناء والتعمير قد ازدهرت بشكل مذهل ، حيث كثرت المباني والمنشآت وعمرت المدينة بمختلف المرافق العمومية ، وازدحمت بالسكان والمساكن ، وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى أن المدينة صارت عاصمة لكامل البلاد ، فمن المنطقي أن تتوسع بها حركة العمران والإنشاء ، يضاف إلى ذلك سبب آخر مهم هو الوفود الكبيرة من اللاجئين الأندلسيين الذين استقروا بالمدينة منذ نهاية القرن الخامس عشر ، والذين نبغوا ليس فقط في شتى العلوم والمعارف ، لكن أيضا في مختلف الحرف والصناعات ومنها البناء ، ويمكن أن نستشف ذلك من خلال وثائق الأرشيف التي تضم عددا كبيرا من أسماء البنائين الأندلسيين يرتب متفاوتة ، بل وحتى شركات ومؤسسات أندلسية للبناء .

وعلى ضوء هذا التقديم الموجز يمكن أن نطرح الإشكال التالي : كيف تطور عمران مدينة الجزائر خلال العهد العثماني ؟ وهل توافق مع وضع المدينة الجديد كعاصمة لكامل البلاد ؟ وللإجابة عن هذا الإشكال سنحاول التعريف بمختلف المنشآت والعناصر بالمدينة معتمدين خاصة على المنهج الوصفي من خلال المعطيات التي سندستقيها من المصادر المحلية والأوربية ، خاصة كتب الرحالة والجغرافيين ، ثم المنهج التحليلي للخروج بمختلف النتائج والاستخلاصات المتعلقة بالموضوع .

1. الإطار الجغرافي :

إن هذه المدينة الجميلة لطالما اجتذبت بسحر طبيعتها وبهاء منظرها الأدباء والشعراء قبل الرحالة والجغرافيين والمؤرخين ، شكلها العجيب أسال الكثير من الحبر وجعلها موضع التأليف والبيان حتى غدت في وقت من الأوقات من أشهر المدن في العالم عموما ، وفي ساحل البحر الأبيض المتوسط خصوصا .

لقد كان لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني منظر مميز بالفعل أغرى الكثير من الكتاب لنعته بمختلف الأوصاف البديعة ، خاصة إذا كان الناظر إليها وافدا من البحر فنجدها تارة توصف بالمدرج المطل على البحر¹ ، وتارة أخرى توصف بشراع سفينة أبيض فتح وسط المروج الخضراء² .

¹ . C . Carteron , *Voyage en Algérie* , J Hertz el librairie éditeur , Paris - France , 1866 , p 467 .

² , Evariste Bavoux , *Voyage politique et descriptif dans le nord de l'Afrique* , Tome 02 , édition Borckhaus et Avenarius , Paris - France , 1841 , p 130 .

كما وصفت بأنها مقلع للرخام الأبيض كناية عن بناياتها المبيضة بالجير¹ ، أما الفارس أرفيو فقد اختصر كل ذلك بقوله : شكل مدينة الجزائر ليس مثلثا تماما ولا مربعا تماما فهو بين هذا وذاك ، بناياتها كلها مبيضة بالجير ، ارتفع بعضها فوق بعض فيما يشبه المدرج ، تبدو من بعيد كسفينة كبيرة منصوبة الأشعة² ، وقد استحقت المدينة بالفعل كل ذلك المديح كما سنرى الآن. هذا عن الموقع ، أما الموضع فقد بنيت المدينة في الجانب الشرقي من هضبة منحدرية على الساحل الشمالي يشرف عليها جبل بوزريعة ، بينها وبين البحر أرض مستوية عرضها متغير وارتفاعها 10 م فوق سطح البحر تنتهي في أقصى اتساع لها بتله ، تنخفض هذه التله فجأة في الجانب الغربي حيث يعبر واد صغير يصب في البحر عند شاطئ صغير ، ثم ترتفع لتشكيل الجبل الذي تلامس أطرافه أمواج البحر ، ومن الغرب إلى الجنوب الشرقي تنخفض المرتفعات تدريجيا مبتعدة عن الساحل بحيث تشكل شواطئ واسعة وسهولا صغيرة ، وفي الجهة الغربية من الخليج ترتفع سلسلة من الصخور تشكل بروزا واضحا وتتقدم شرقا لتتصل بأربعة جزر صغيرة ، ثلاث منها تتجه من الشرق إلى الغرب ، أما الأخيرة وهي أكبرها فتتجه من الجنوب إلى الشمال ، وبذلك فهذه الصخور تشكل حوضا طبيعيا ، إذ كانت ترسو بها السفن لتحتوي من الرياح وأمواج البحر³ .

وقبل أن نستعرض في الحديث عن عمران مدينة الجزائر ووصف مختلف منشآتها وعمائرها خلال العهد العثماني ، يحسن بنا تقديم صورة ولو موجزة عنها قبل هذا العهد لفهم كيفية تطور عمران المدينة خلال العهد ، وفي هذا الصدد لا نجد خيرا من وصف أحد الرحالة المعاصرين لذلك وهو الحسن الوزان الذي قدم لنا وصفا موجزا عن مدينة الجزائر غداة وصول الأخوين بربروس وقبيل إلحاقها بالدولة العثمانية بقليل ، ومما جاء في وصفه " وهي كبيرة جدا تضم نحو أربعة آلاف كانون ، أسوارها رائعة ومتينة جدا مبنية بالحجر الضخم ، فيها دور جميلة وأسواق

¹ لوسور وويلد ، إيالة الجزائر ، تقديم وترجمة : محمد جيجلي ، شركة دار الأمة ، الجزائر ، 2002 ،
اللوحة 01 (تقسيم الكتاب حسب اللوحات وليس الصفحات) .

² Chevalier d'Arvieux , *Mémoires* , Tome 05 , Charles-Jean-Baptiste libraire , Paris-France ,
1735, p 219 .

³ Albert Devoulx , *El Djazair , Histoire d'une cité d'Icosium à Alger* , présentation du :
Badredine Belkadi et Mustafa Benhamouche , ENAG édition , Algérie , 2003 , p 26 .

أنظر أيضا : عبد القادر علي حليبي ، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830 ، المطبعة العربية
لدار الفكر الإسلامي الجزائر ، 1972 ، صص 41 . 45 .

منسقة كما يجب ، لكل حرفة مكانها الخاص ، وفيها كذلك عدد كبير من الفنادق والحمامات ، ويشاهد من جملة بناءاتها جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر ، أمامه ساحة جميلة جدا اتخذت على سور المدينة ذاته الذي تتلاطم عند أسفله أمواج البحر ، ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه ، ويمر قرب المدينة من الجهة الشرقية نهر نصبت عليه طاحونات تزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى¹.

فهذا إذا هو وصف الوزان لمدينة الجزائر قبيل إلحاقها بالدولة العثمانية ، وهو وصف موجز ومختصر حاول فيه الوزان إعطاء نظرة عامة فقط عن المدينة ، لكن مع ذلك فإن هذا الوصف سيسمح لنا بفهم التطور العمراني الذي حصل للمدينة خلال العهد العثماني ، والذي سنبدأ الحديث عنه بوصف الميناء ومختلف منشآته .

2. منشآت الميناء :

كان الميناء هو النواة الأساسية التي تشكلت عليها مدينة الجزائر منذ العهد الفينيقي حيث كانت مرفأً تجاريا صغيرا يسمى إيكوسيم ، وظلت عبر العصور المتعاقبة مدينة صغيرة ومرفأً قليل الأهمية إلى مطلع القرن السادس عشر وإلحاقها بالدولة العثمانية حيث تغير الوضع ، فقد صار لهذا الميناء أهمية كبيرة جدا ، وأصبح الخط الدفاعي الأول عن المدينة من جهة البحر ، لذا فقد اهتم حكام الجزائر دائما بتقويته وتدعيمه بمختلف الدفاعات والتحصينات العسكرية ، فأول ما قام به خير الدين بربروس بعد الانتصار على الإسبان سنة 1529 الاستيلاء على حصن الصخرة وتهديمه ، ثم قام سنة 1532 بوصل الجزر الصخرية التي كانت تقابل المدينة مع جزيرة الصخرة الكبيرة مشكلا منها رصيفا بحريا صار ميناء ومرسى لسفن الأسطول الجزائري والسفن التجارية أيضا ، ثم قام ببناء سور حول هذا الرصيف بلغ محيطه ثلاثمائة خطوة وسمكه عشرة أشبار ، أما ارتفاعه فقد كان خمس عشرة شبرا فقط ، وزاد صالح رايس في ارتفاعه بسور من الجهة الشمالية سنة 1556 ، وقد أتم هذا العمل الباشا أحمد أعراب عام 1573 بإحاطة جزيرة الميناء الموصولة بالرصيف بسور أيضا مستثنيا منها الجزء الجنوبي والذي يتضمن الميناء ، وقد كان هدفه من ذلك منع سفن الأعداء من الرسو أثناء المعارك البحرية² ، وفي سنة 1574 زاد علي بابا

¹ الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج 2 ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، بيروت-لبنان ، 1983 ، ص 37.

² Diego de Haëdo , *Topographie et histoire général d'Alger* , traduit de l'espagnol par :

MM. Dr. Monnereau et A. Berbrugger , éditions Grand Alger Livres , 3ème édition , Algérie

2007 , p 28 , 29 .

النكسيس رصيفا آخر في الجزء الجنوبي الغربي للميناء أقصر من الأول لكنه أعرض منه ، وذلك لتغطيته الميناء من الجهة الجنوبية الغربية ، وبذلك أغلقت جميع منافذ الميناء ولم تبق إلا الجهة الجنوبية التي تلج منها السفن ، وقد كانت تغلق في الليل بثلاث سلاسل قوية تربط بين رأس المول والرصيف الكبير¹ ، وقد استمر هذا الميناء طيلة العهد العثماني ورشة مفتوحة للإضافات والتجديدات والترميمات .

وفضلا عن الأسوار المنيعة المحيطة بالميناء ورصيفه فقد زودت الجزيرة الصخرية بمجموعة من التحصينات عددها ثمانية وهذا تفصيلها :

1.2 برج المنارة :

وهو الأكبر والأهم وكان يعرف عند العامة ببرج الفنار ، بني من طرف الباشا أحمد أعراب سنة 1572 على قاعدة شبه دائرية يبلغ قطرها 96 م ، وكان يتكون من أربعة طوابق ، بالطابقين الثالث والرابع والسطح فتحات للمدفعية ، مسقط البرج مضلع به 12 ضلعا ، طول كل ضلع سبعة أمتار في السطح وأكثر من ثمانية أمتار على الأرض ، وينتهي البرج بمنارة مضلعة ارتفاعها عن السطح الأخير 14 م ليصبح ارتفاع البرج الإجمالي 36.8 م² .

2.2 برج رأس عمار القديم :

شيده محمد بن عثمان باشا سنة 1784 ويقع شمال برج المنار ، وهو مستطيل الشكل طوله 21 م وعرضه 6.9 م ، ويضم 53 فتحة مدفعية تتوزع على طابقين ، 25 بالسفلي و 28 بالعلوي³ .

3.2 برج رأس عمار الجديد :

شيده الداوي حسين ويتكون من طابقين تنتشر عبرهما 34 فتحة مدفعية ، 17 فتحة بكل طابق⁴ .

4.2 البرج الجديد :

شيده محمد بن عثمان باشا سنة 1774 ، ويتكون من طابقين تتوزع فيهما 21 فتحة مدفعية ، وقد خلد البناء بكتابة تذكارية مكونة من ستة أبيات باللغة التركية وبخط النسخ⁵ .

¹ علي خلاصي ، القلاع والحصون في الجزائر ، دار Dalimen للنشر ، الجزائر ، 2008 ، ص 20 ، 21 .

² نفسه ، ص 29 ، 30 .

³ نفسه ، ص 30 .

⁴ Henri Klein , feuillets d'El-Djazair , Tome 01 , édition du Tell , Blida - Algérie , 2003 , p 78 .

⁵ علي خلاصي ، مرجع سابق ، ص 30 ، 31 .

5.2 برج ماين :

شيدده الداي حسين باشا وهناك كتابة تأسيسية باللغة التركية ورد بها تاريخ 1239 هـ (1824/1823)، وقد كان يضم ثلاثة طوابق تتوزع عبرها 18 فتحة مدفعية، وقد اشتق اسمه من موقعه الذي يتوسط باقي الأبراج¹.

6.2 برج السردين :

يعتبر من أقدم تحصينات الميناء، وهناك كتابتان أثريتان تخلدان المبنى، الأولى باللغة التركية تتعلق بالتأسيس وتحمل تاريخ 1077 هـ (1667) واسم أحمد باشا، والثانية باللغة العربية تتعلق بترميمه وتجديده في عهد محمد بن عثمان باشا وتحمل تاريخ 1190 هـ (1777)، وقد اشتق اسمه من رسم سمكتين متقابلتين تعلوان الكتابة السابقة²، وقد ذكر كلاين أن بناءه يعود إلى سنة 1616³.

7.2 برج القومان (الحيال) :

كانت تحفظ بداخله الحبال المخصصة للسفن ومنها أخذ اسمه على ما يبدو، بناه عمر باشا وخلده بكتابة تذكارية باللغة التركية تحمل تاريخ 1231 هـ (1815)، وتقع الكتابة في ستة أبيات بالإضافة إلى سطر أخير مخصص للتاريخ، وقد كان يتكون من طابقين تتوزع عبرهما 30 فتحة مدفعية، بين كل فتحة وأخرى حوالي 3.6 م⁴.

8.2 برج رأس المول :

وهو آخر برج دفاعي من الناحية الجنوبية الشرقية لذلك سمي برأس المول، شيدده الباشا محمد أعراب، وهناك ثلاث كتابات تاريخية خلدت ذكرى هذا المبنى جاءت كلها باللغة العربية ونفذت كلها بخط مغربي رديء حسب خلاصي⁵.

تضمنت الكتابة الأولى اسم محمد أعراب بن المعلم علي وتاريخ ربيع الثاني 1115 هـ (أوت 1703)، وتضمنت الثانية أيضا اسم محمد أعراب بن محمد بن المعلم علي وتاريخ ربيع الثاني 1120 هـ

¹ نفسه، ص 32.

² نفسه، ص 33.

³ Klein, op.cit, p 78.

⁴ علي خلاصي، مرجع سابق، ص 33، 34.

⁵ نفسه، ص 34.

(جوان 1708)، أما الكتابة الثالثة فقد تضمنت اسم علي باشا بن حسين وتاريخ شعبان 1124 هـ (سبتمبر 1712)¹، وتعدد التواريخ والأسماء يدل على أن البناء لم يتم في وقت واحد لكنه متقارب .
وفضلا عن التحصينات والأبراج كانت توجد بجزيرة الميناء ورصيفه منشآت ومرافق أخرى نذكر منها مخازن الرصيف ، وقد شيدت في عهد علي باشا كما تؤكد ذلك الكتابة التأسيسية سنة 1229 هـ (1814)، وهي بناء مستطيل الشكل يتكون من قسمين شمالي وجنوبي يضمن مجموعة من القاعات كانت تستخدم لتخزين الحبال وعتاد السفن ، وأيضا لتخزين المؤن للجند في حالة حصار الميناء².

نذكر من هذه المنشآت أيضا دار لوكيل الحرج وأخرى للأمير البحر ، وأيضا عين ماء تقع تحت دار وكيل الحرج ، بالإضافة إلى مسجد صغير مساحة بيت الصلاة فيه 47.25 م² فقط ، وكان هذا المسجد على غرار مصليات الأحياء بلا منذنة ولا منبر³.

3. التحصينات والمنشآت الدفاعية والعسكرية :

وتشمل الأسوار والخنادق ، الأبواب ، الحصون والقلاع ، بالإضافة إلى ثكنات الانكشارية وسجون ومعتقلات الأسرى النصارى .

1.3 السور والخندق :

يمكن تشبيه شكل سور المدينة كما شبهه هايدو (Haëdo) بالقوس والوتر ، بحيث يمثل القوس السور من جهة البر ، ويكون الوتر هو السور من جهة البحر وإن كان هذا التشبيه غير مطابق تماما للواقع ، لأنه من جهة البحر لا يسير في خط مستقيم كالوتر ، بل يوجد بروز طبيعي في وسطه تقريبا .
في نهاية القرن السادس عشر قام هايدو بحساب محيط هذا السور لكن بطريقة بدائية نوعا ما -ربما لكي لا يثير الشكوك حوله - ووجد أنه يبلغ من جهة البر نحو 1800 خطوة⁴ ، ومن جهة البحر حوالي 1600 خطوة⁵ وليكون هذا السور أشد قوة ومتانة فقد بني بالحجارة المصقولة من الأسفل ،

¹ نفسه ، ص 34 .

² نفسه ، ص 22 ، 23 .

³ نفسه ، صص 23 - 28 .

⁴ يمكن أن نفترض أن الخطوة تقدر في متوسطها بحوالي 01 متر .

⁵ Diego de Haëdo , op.cit , p 27 , 28 .

وبالأجر من الأعلى بسمك ثابت قدره 12 قدم¹ ، أما بالنسبة لارتفاعه فقد بلغ ثلاثين قدما من جهة البر وأربعين قدما من جهة البحر² .

دعم سور المدينة بمجموعة من الأبراج المربعة موزعة بانتظام ، ومن جهة البر وزيادة في الأمن فقد سبق على كامل محيطه بخندق عرضه عشرون قدما وعمقه سبعة أقدام³ ، ويتكلم دوفو عن سور آخر أقل ارتفاعا من الأول يلي الخندق⁴ ، ويبدو أنه انفرد بهذا الوصف ، فلا يوجد من تحدث عن سور ثان ممن وصفوا المدينة .

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الأسوار لم تبين في وقت واحد ، بل إنها خلاصة أعمال متراكمة ، وتجديدات وترميمات متتابة من طرف عدة باشاوات تداولوا على حكم الجزائر خلال العهد العثماني ، كما لا ننسى أن المدينة كانت محاطة بأسوار منذ القرن 4 هـ / 10 م استنادا إلى نص ابن حوقل " وجزائر بني مزغنان مدينة عليها سور في نحر البحر ولهم جزيرة تحاذيها في البحر إذا نزل بهم عدو لجؤوا إليها فكانوا بها في منعة وأمن"⁵ ، وظلت كذلك منذ ذلك الوقت استنادا إلى وصف الإدريسي في القرن 12 م ، العبدري في نهاية القرن 13 م ، البكري في نهاية القرن 15 م وأخيرا الوزان في بداية القرن 16 ، وكلها تحدثت عن أن المدينة محاطة بأسوار منيعة .

2.3 أبواب المدينة :

يذكر هايدو بالنسبة لأبواب المدينة أن عددها كان تسعة ، وقد تتبع هايدو هذه الأبواب من جهة البر خارج الأسوار منطلقا من الجهة الشمالية مديرا ظهره للبحر ، وقد ابتدأ في ذلك بباب الوادي وصولا إلى باب عزون ، ثم انتقل إلى الأبواب المطلة على البحر⁶ لكنه احتسب في هذا العدد أربعة أبواب غير حقيقية ، بابان يؤديان لحصن القصبة وليس للمدينة مخصصان لدخول الجنود فقط ، كما احتسب بابين آخرين يؤديان لدار صناعة السفن التي كانت موجودة على الساحل قرب باب البحر

¹ قدم : وحدة قياس تساوي 30.48 سم .

² Thomas Shaw , **Voyage dans la régence d'Alger** , traduit de l'anglais par : J. Mac Carthy MRALIN éditeur , Paris - France , 1830 , p 293 .

³ Laugier de Tassy , **Histoire du royaume d'Alger** , édition Henri du Sauzet , Amsterdam-Hollande , 1725 , p157 .

⁴ Albert Devoulx , op.cit , p 61 .

⁵ أبو القاسم بن حوقل ، المسالك والممالك ، مطابع بريل (E.J Brill) ، ليدن (Leiden) هولندا ، 1872 ، ص 52 .

⁶ Diego de Haëdo , op.cit , p 30 .

، لكن هذين البابين لا يوصلان للمدينة أيضا بل يصلان دار الصناعة بالبحر فقط أما من جهة المدينة فلا يوجد لدار الصناعة هذه أي منفذ .

ولذلك فإن الأبواب الحقيقية للمدينة خمسة فقط وهي : باب الوادي ، باب الجديد¹ ، باب عزون ، باب البحر² وأخيرا باب الجزيرة³ .

1.2.3 باب الوادي :

يقع شمال المدينة ، يفتح هذا الباب على الشارع الذي يحمل نفس الاسم ، أما خارجه فتوجد مقبرة للنصارى وأخرى لليهود ، وهناك تقام أيضا أحكام الإعدام على المحكومين من هاتين الطائفتين⁴ ، كما يوجد حصن سنتكلم عنه لاحقا .

2.2.3 باب الجديد :

يقع في الجهة الجنوبية الغربية على بعد حوالي 1220 خطوة من باب الوادي ، يدخل منه الوافدون من غرب البلاد ومن البلدة⁵ ، ويفضي إلى حصن الإمبراطور الذي سنتكلم عنه لاحقا .

3.2.3 باب عزون :

يقع في الجنوب الشرقي للمدينة ويتميز بحركية كبيرة ، يبعد عن باب الجديد بـ 400 خطوة ، وقد سمي كذلك نسبة لأحد الأهالي اسمه عزون ثار ضد الحكم العثماني وحاصر المدينة ، لكن ثورته أخمدت وتم القضاء عليه ، ويفضي هذا الباب إلى الشارع الذي يحمل نفس الاسم والذي يعد القلب النابض للمدينة ، ويتصل بشارع باب الوادي الذي يعد امتداد له ، يستخدمه الوافدون من جنوب

¹ كانت تسميته في الأصل الباب الجديد بالتعريف ، ثم حذفت أداة التعريف لتسهيل النطق عند العامة وصارت باب الجديد .

² يسمى أيضا : باب السردين وباب الحواتين نسبة لصيادي السمك الذين كانوا يلجئون ويخرجون منه وبيعون صيدهم هناك .

³ حرف هذا الاسم هو الآخر عند العامة وأصبح باب الدزيرة ، وسمي أيضا باب الديوانة (مصالح الجمارك) .

⁴ Laugier de Tassy , Histoire d'Alger , PILTAN libraire , 2^{ème} édition , Paris - France , 1830 , p

174 .

⁵ عبد القادر علي حليمي ، مرجع سابق ، ص 232 .

وشرق البلاد ، وقد كان له جسر يرفع أثناء الخطر¹ وخارجه يوجد متراس تنفذ عنده أحكام الإعدام على المحكوم عليهم² ، وبعد 50 خطوة من هذا الباب تنتهي الأسوار من جهة البر . أما جهة الأسوار المقابلة للبحر فإنها تتضمن باين اثنين باب البحر وباب الجزيرة .

4.2.3 باب البحر :

يقع على بعد حوالي 550 خطوة من بداية الأسوار من الجهة الجنوبية على جانب الجامع الجديد ، يستخدمه الصيادون الخارجون للصيد أو العائدون منه ، كما تدخل منه السلع المجلوبة من طرف النصارى واليهود .

5.2.3 باب الجزيرة :

وعلى بعد 200 خطوة من الباب السابق يوجد باب الجزيرة وهو مدخل الميناء ومنه تدخل السلع والبضائع المجلوبة من طرف الأتراك أو سكان المدينة ، ويتميز بكثرة النشاط والحركة³ .

3.3 القلاع والحصون والأبراج :

تضم المدينة مجموعة من القلاع والحصون والأبراج تتوزع على محيط الأسوار وداخلها ، كما توجد أيضا مجموعة أخرى منها خارج الأسوار وهي مخصصة أيضا للدفاع عن المدينة .

1.3.3 على الأسوار وداخلها :

بالنسبة لتلك الموجودة داخل المدينة ، فهي كثيرة جدا وقد أحصاها هايدو وقال أن الأهم منها ستة من جهة البر وواحد فقط من جهة البحر وهو حصن باب الجزيرة ، وقد أشار إلى عدد الفتحات المخصصة للمدافع واتجاهاتها كما حدد عيار المدفعية المستخدمة فيها ، بالإضافة إلى حصنين آخرين بجزيرة الميناء⁴ ، لاحقا قام كلاين بإحصاء كل هذه المنشآت تقريبا وقدرها بـ 15 منشأة دفاعية ، وقد حدد غالبا أماكنها ، تواريخ إنشائها ومن أنشأها ، عدد مدافعها ، وفي كثير من الأحيان تواريخ زوالها واندثارها أو تدهيمها ، والأهم من هذه الأبراج ثلاثة حصن القصبة ، حصن باب الجزيرة وبرج البحر .

- حصن القصبة : يوجد بأعالي المدينة ، أبعاده 100×60 خطوة ، جداره الخارجي كان يمثل جزءا من أسوار المدينة⁵ ، له باب من جهة المدينة عبارة عن عقد محمول على دعامتين تعلوه كتابة تأسيسية

¹ نفسه ، ص 232 .

² Laugier de Tassy , *Histoire d'Alger* , p 173 .

³ Diego de Haëdo , op.cit , p 32 , 33 .

⁴ Ibid , pp 34 - 37 .

⁵ Ibid , p 35 .

تحمل اسم الباشا خيضر وتاريخ 1591¹ ، و الحقيقة أن عروج بربروسة هو من ابتدأ في إنشائه سنة 1516 ، وقد كان يضم في وقت خيضر باشا 27 مدفعية مصوبة نحو المدينة ، و 20 مدفعية أخرى مصوبة إلى خارج المدينة² .

- حصن باب الجزيرة : وكان يسمى أيضا : حصن الأندلس وطبانة³ الجمرك ، ويسمى حاليا : حصن 23 أوقصر رؤساء البحر ، أنشئ هذا الحصن من طرف القائد التركي صفر بن عبد الله عام 1551 وقد كان الأجمل بالمدينة أبعاده 40×30 م ، كان يضم 23 قطعة مدفعية من البرونز هي الأجود في المدينة ، أحدها بسبع فوهات جلب من فاس عام 1576⁴ ، لكنه نقل إلى باريس بعد احتلال القوات الفرنسية للجزائر مباشرة عام 1830⁵ .

- برج البحر : أنشأه الداوي حسين باشا تحصينا لمدينة الجزائر بعد حملة اللورد إكسموث سنة 1816 ، وكان يضم ستا وثلاثين قطعة مدفعية⁶ ، وهو الذي ذكره شالر ، وذكر أنه بني في نفس المكان الذي احتله أسطول إكسموث على رأس الممر الذي يمتد في البحر ، وبالتالي فإن هجوما من نفس النوع لن ينجح لا محالة بحسب شالر⁷ .

باقي المنشآت الأخرى نذكرها باختصار اعتمادا على كلاين كالآتي⁸ :

- طبانة باب الجديد بها تسعة مدافع .
- طبانة العسلاوي بها تسعة مدافع ، دمرت سنة 1870 .
- برج صغير فوق باب عزون .
- طبانة العسل بها خمسة مدافع ، دمرت سنة 1875 .

¹ George Marçais , *L'architecture musulmane d'occident (Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne et Sicile)* , arts et métiers graphique , Paris - France , 1955 , p 446 .

² Henri Klein , op.cit , p 75 , 76 .

³ طبانة : اشتهر استخدام هذا اللفظ عند العامة بالجزائر للتعبير عن الأبراج والقلاع التي تضم سلاح المدفعية ، وهو مشتق في الأصل من الكلمة التركية طوب خانة وتعني برج مدفعية .

⁴ Diego de Haëdo , op.cit , p 36 , 37 .

⁵ Henri Klein , op.cit , p 76 .

⁶ Ibid , p 76 .

⁷ وليام شالر ، مذكرات وليام شالر . قنصل أمريكا في الجزائر (1816 - 1824) . ، تقديم ، تعليق وترجمة : إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1882 ، ص 73 .

⁸ Henri Klein , op.cit , p 76 , 77 .

- طبانة المارستان بها أربعة مدافع ، دمرت لاحقا في أشغال توسعة الشارع .
 - برج قاع السور له أربعة مدافع .
 - طبانة الجامع الكبير بها أربعة مدافع ، بناها الداوي عمر باشا بعد حملة إكسموث .
 - طبانة السبع تبارن¹ وتسمى أيضا طبانة ساباط² الحوت ، أنشئت سنة 1559 بأمر العليج علي ودمرت سنة 1866 .
 - طبانة الحمام المالح بها عشرة مدافع أنشئت أيضا بأمر العليج علي سنة 1559 ، ودمرت أيضا سنة 1866 .
 - طبانة سيدي رمضان وتسمى أيضا طبانة قطاع الرجل بها 13 مدفعا ، أنشأها الرايس يحيى في القرن 16 ، ووجدت بعدها بقليل في نفس الفترة تقريبا .
 - برج مربع له سبع مدافع اسمه غير معروف (حسب كلاين) ، يوجد أعلى المنشأة السابقة بحوالي ثلاثين مترا.
 - برج الطاحونات به أربعة مدافع .
- 2.3.3 خارج الأسوار:

أما عن الحصون الموجودة خارج الأسوار فالأهم منها خمسة :

- برج ستي تاقليلت :
- وكان يسمى أيضا (حصن 24 ساعة ، برج العليج علي) ، هذا الحصن رباعي الأضلاع يقع على يمين الخارج من باب الوادي على بعد 370 خطوة ، ابتداء ببناءه محمد باشا عام 1557 ، وأتمه علي باشا (العليج علي) عام 1569³ .
- الحصن الجديد :
- ويسمى أيضا برج الزوبية (المزبلة العمومية) ، قام ببنائه الداوي مصطفى باشا (1798-1805) على أنقاض حصن قديم كان قد بني عام 1576 من طرف رمضان باشا⁴ .

¹ تبارن : جمع تبرنة ، وهي الخمارة .

² ساباط : مصطلح معماري يعني ممر ضيق مسقوف .

³ . Diego de Haëdo , op.cit , pp 39 - 41 .

⁴ . Henri Klein , op.cit , p 78 .

- حصن النجم :

ويسمى أيضا برج محمد باشا يقع جنوب برج ستي تاقليلت بمقدار ألف خطوة ، شيد هذا البرج من طرف محمد باشا عام 1568¹ .

- حصن الإمبراطور :

وكان يسمى محليا برج بوليلة لأن الإمبراطور شارل الخامس خيم فيه ليلة واحدة في حملته الشهيرة على الجزائر سنة 1541 ثم انسحب يجرأذبال الهزيمة ، كما سمي برج الطاووس ، برج مولاي حسن نسبة إلى حسن باشا بن خير الدين الذي ابتداء ببناءه عام 1545 ، لاحقا تم تدعيم هذا الحصن بأربعة قلاع عام 1580 ، كان يقع هذا الحصن في الجنوب الغربي للمدينة ، وهو ذو شكل رباعي الأضلاع ارتفاع جدرانه 40 قدما وسمكها عشرة أقدام ، وقد ذكر الجاسوس بوتان أن عدد فوهات الحصن كان 77 أما المدافع فعددها 35 فقط ، وقد زاد عددها إلى 91 أثناء مقاومة الغزو الفرنسي² ، وقد ذكر الزهار أن هذا البرج قد تضرر كثيرا أثناء هجوم القوات الفرنسية على الجزائر ، ثم إن الخزناجي أمر بتفجير خزانة البارود التي بداخله لكي لا يقع في أيدي الفرنسيين ، فدمر ما بقي منه³ .

- برج رأس تافورة :

ويسمى أيضا حصن باب عزون كان يقع في المنطقة التي تسمى حاليا ساحة بور سعيد ، يذكر كلاين أنه أنشئ ما بين 1581 و 1584 ، وأن مصطفى باشا قام بتوسعته عام 1798 ، وفي عام 1816 تم ترميمه باستخدام بعض الضباط الفرنسيين المنفيين من فرنسا لأسباب سياسية⁴ .
يضاف إلى هذا كله بعض الحصون والأبراج المنتشرة عبر الساحل على غرار الحصن الإنجليزي بالناحية الغربية و برج رأس ماتيفو بالناحية الشرقية .

4.3 الثكنات والمعتقلات :

كانت توجد بالمدينة سبع ثكنات للانكشارية ، خمس منها كبيرة الحجم تستوعب حوالي ستمائة جندي ، واثنان صغيرتان لا تستوعب الواحدة منهما أكثر من ثلاثمائة جندي ، وكانت تسمى

¹ . Diego de Haëdo , op.cit , p 41 , 42 .

² . Albert Devoulx , op.cit , p 141 , 142 .

³ أحمد شريف الزهار ، مذكرات ، تحقيق وتقديم أحمد توفيق المدني ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 ، ص 217 .

⁴ . Henri Klein , op.cit , p 79 .

كل منها دار الانجشارية أو الانجشارية وأسماؤها : دار الانجشارية باب عزون ، الخراطين ، المقرون ، القديمة ، الجديدة ، الدروج وأخيرا دار الانجشارية الاسطه موسى أو باب الدزيرة¹ .
هذه الثكنات كانت عبارة عن بنايات مربعة أو مستطيلة المسقط تتوسطها أفنية فسيحة تحيط بها أروقة تتوزع فيها غرف إيواء الانكشارية ، وكانت بكل منها عيون وصهاريج تتوسط الأفنية² .
أما عن السجون أو المعتقلات فعددها خمسة وقد كانت مخصصة للعبيد والأسرى النصارى ، يتكلم هايدو عن أحدها ويقول أنه مربع المسقط مؤلف من طابقين أبعاده 70×40 قدم يتوسطه فناء بمركزه صهريج ماء ، وبأحد جوانبه في الأسفل يوجد مكان عبادة للنصارى يقيمون فيه صلواتهم وشعائهم³ .

4. المنشآت الدينية :

يحصي هايدو في نهاية القرن 16 حوالي مئة مسجد بالمدينة الأهم منها سبعة⁴ ، ويبدو أن هذا العدد لم يتغير إلى بداية القرن 19 حسب (Rozet et Carette)⁵ ، لكن شاو في القرن 18 لا يتكلم إلا عن 60 مسجدا فقط الأهم منها عشرة⁶ ، ولنتكلم عن اثنين منها كنماذج فقط ، الأول هو الجامع الكبير أو الأعظم والذي يعود تأسيسه إلى أول رجب سنة 490 هـ (جوان 1018 م) حسب الكتابة التأسيسية المثبتة على المنبر ونصها " بسم الله الرحمن الرحيم أتم هاذا المنبر في أول شهر رجب الذي من سنة تسعين وأربع مائة عمل محمد " ، وقد أضيفت للجامع منذنة جميلة في العهد الزياني اكتمل بناؤها في

¹ Adrian Berbrugger , " Les casernes des janissaires " , **revue africaine** , volume 03 , A. JOURDAN , libraire - éditeur , Alger , 1858 , pp 132 - 138 .

² Diego de Haëdo , op.cit , p 223 .

³ Ibid , p 223 .

⁴ Ibid , p 213 .

⁵ Rozet C.A et carette E , **L'Algérie** , FIRMIN DIDOT FRÈRES éditeurs , Paris - France , 1850 , p 71 .

⁶ Thomas Shaw , op.cit , p 294 .

⁷ قرأها البعض تسع أي 409 (نور الدين عبد القادر ، دوفو ، بارجيس ...) ، والكتابة قد تعرضت لتشويه كما ذكر نور الدين عبد القادر جعل من الصعب قراءتها بصورة صحيحة ، ولذلك اختلط الأمر على من قرأها كذلك ، والأقرب للمنطق والصواب أنها تسعين أي 490 هـ ، ويوافق ذلك عصر دولة المرابطين ، والجامع بالتأكيد يعود لتلك الفترة لأنه مشابه كثيرا في تخطيطه وعمارته لجامع أخرى تنسب للمرابطين على غرار الجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بندرومة .

رجب 723 هـ (جويلية 1323 م) بحسب الكتابة التأسيسية المثبتة عند مدخلها¹، يقع هذا الجامع في الجنوب الغربي من باب الجزيرة، وكان هذا المسجد خلال العهد العثماني يتبع المذهب المالكي²، الجامع مستطيل الشكل بمساحة ألفي متر مربع تقريبا، 48 متر في جدار القبلة والجدار المقابل له في المؤخر، و 40 متر على الجانبين، له خمسة أبواب من الناحية الشمالية الغربية، أربع منها لديها أسماء (باب الجنيّة، باب البواقي، باب الفؤارة وباب الصومعة)، أما الباب الخامس فبدون اسم لأنه استحدث لاحقا فقط من طرف الفرنسيين³.

المسجد الثاني يقع جنوب الأول وهو الجامع الجديد الذي بني على أنقاض مدرسة قديمة تدعى البوعنانية، وقد بني على يد جماعة من الانكشارية وعلى نفقة جمعية سبل الخيرات، وكان يتبع المذهب الحنفي وتعلو المحراب كتابة تأسيسية تشير إلى تاريخ 1070 هـ / 1660 م⁴.

هذا الجامع يلفت انتباه القادم إلى مدينة الجزائر من جهة البحر، حيث يشرف على الميناء بمئذنته العالية وقبته الضخمة الجميلة، يظهر المسجد بشكل مستطيل يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ويغطي بجميع لواحقه مساحة قدرها 1371 م²، طوله 39.5 م وعرضه 24 م من جهة 24.5 م من الجهة المقابلة، وذلك دون احتساب سمك الجدران الذي يكون في الغالب 01 م، سطح المسجد مؤلف من قبوين متقاطعين يوحيان في منظرهما بما يشبه شكل الصليب، وعن هذا الأمر يمكن أن نذكر أسطورة متداولة بين السكان أنه كان هناك عبد نصراني ماهر في البناء كلف بمتابعة أشغال هذا المسجد، لكنه قام بتغيير مخططه لسبب ما وجعله على شكل صليب، فنقل الخبر إلى الباشا الذي استشاط غضبا من هذا الصنيع الشنيع، وأعدم هذا الأسير⁵، وهو كلام مضحك وسخيف طبعا ولا يمكن أن يقبله أي عقل، ولو سلمنا به إجمالا لكان ما أسهل على الباشا أن يأمر بتغيير شكله، وغاية ما في الأمر أن هذا النوع من المخططات كان شائعا ومتداولاً في مساجد بلاد الأناضول ومنه اشتق هذا الجامع شكله.

¹ رشيد بورويبة، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، ترجمة إبراهيم شيوخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 63.

² نور الدين عبد القادر، مرجع السابق، ص 155.

³ Albert Devoulx, les édifices religieux de l'ancien Alger, Typographie Bastide, Alger, 1870, p 96.

⁴ نور الدين عبد القادر، مرجع سابق، ص 161.

⁵ Albert Devoulx, Les édifices religieux ..., p 132, 133.

مئذنة الجامع مربعة المسقط ، كان ارتفاعها يبلغ 30 م ، لكن أشغال الردم التي عرفها محيط المسجد بعد 1830 قلصت هذا الارتفاع إلى 25 م ، وفي أعلاها توجد ساعة مربعة كبيرة نقلت إليها سنة 1847 بعد العثور عليها في قصر الجينية سنة 1842¹ ، لكن نور الدين عبد القادر ذكر أن الساعة نقلت إلى المئذنة سنة 1854² .

هذا وقد بنيت مساجد الجزائر خلال العهد العثماني وفق طرازين اثنين غالبا ، الطراز الأول محلي يقوم فيه بيت الصلاة على الأعمدة والدعامات سواء كان يشتمل على صحن أم لا ، ويغطي بسقف مسطح ، وقد جاءت معظم المساجد التي بنيت وفق هذا الطراز متوسطة أو صغيرة الحجم ، ومن أمثلتها جامع القصبة البراني وجامع سيدي محمد بوقبرين³ .

الطراز الثاني به تأثيرات وافدة من بلاد الأناضول ، ويقوم تخطيط المسجد فيه أساسا على قبة مركزية ترتفع فوق بيت الصلاة وتقوم على قاعدة مئذنة تحيط بها قبيبات صغيرة مثل جامع علي بتشين ، أو قاعة صلاة مربعة مغطاة بقبة مركزية كبيرة وتقوم على حنايا ركنية مثل جامع صفر ومسجد سيدي عبد الرحمان⁴ .

وقد كانت توجد بالمدينة كنيسة كاثوليكية واحدة على الأقل⁵ ، أما معابد اليهود فيذكر كلاين أنها بلغت 14 تركزت أغلبها في ناحية باب الوادي⁶ .

وكانت توجد بالمدينة ثلاثة مدارس أو معاهد كبيرة تسمى محليا " الزاوية " تلقى فيها الدروس للكبار ، ومنها زاوية المسجد الكبير ، وعدد كبير من المدارس الصغيرة يطلق عليها محليا اسم " المسيد " مخصصة لتحفيظ القرآن للصغار⁷ ، كما كان بالمدينة عدد من الأضرحة منها ما هي للسلطين وكبار المسؤولين في الدولة ، ومنها ما كانت للعلماء والأولياء ونذكر من أهمها ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي الذي لا يزال قائما إلى يومنا هذا وقد بني عليه مسجد حمل نفس الاسم ، وقد كانت توجد

¹ Henri Klein , op.cit , Tome 02 , p 10 .

² نور الدين عبد القادر ، مرجع سابق ، ص 163 .

³ عبد العزيز لعرج ، "مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر" ، دراسات في آثار الوطن العربي ، مجلد 5 ، عدد 5 ، القاهرة ، 2002 ، ص 530 .

⁴ نفسه ، ص 530 ، 531 .

⁵ Thomas Shaw , op.cit , p 294 .

⁶ Henri Klein , op.cit , Tome 02 , p 32 .

⁷ Laugier de Tassy , Histoire du royaume d'Alger ... , p 164 .

خارج باب الوادي ستة أضرحة وخارج باب عزون ثلاثة أخرى¹ ، وقد كانت هذه الأضرحة مبنية بطريقة جميلة تعلوها القباب ، وتكسوها البلاطات الخزفية .

5. المرافق والمباني العمومية :

انتشرت بالجزائر خلال العهد العثماني المرافق العمومية التي كانت تظهر نشاط المدينة وتسهل حياة الناس اليومية ونذكر منها :

1.5 المنشآت المائية :

لم تكن تملك المدينة أي مصدر قريب للماء في السابق ، لكن في 1611 قام أحد الأندلسيين باكتشاف منبع للماء بالقرب من حصن الإمبراطور على بعد 2 كلم من المدينة واقترح مشروعا لنقل مائه إلى المدينة ، وبالفعل تم تجسيد ذلك المشروع بقناة كبيرة وعدة قنوات صغيرة تصب كلها في خزان قرب الميناء تزود منه السفن بالماء² كما كانت هذه القنوات تزود حوالي 150 عين عمومية (سبيل) منتشرة داخل المدينة أو خارجها بالقرب من الأسوار مبنية بطريقة جميلة وموحدة تقريبا³ ، بها أنبوب نحاسي يصب منه الماء في حوض من الحجر أو الرخام ، وبأغلبها نقش كتابات تأسيسية وأدعية للعين أو لبانيها وللشارب منها أحيانا⁴ ، كما توفرت أغلب المنازل على خزانات وصهاريج تزودها الآبار التي حفرت داخل هاته المنازل أو يتجمع فيها ماء المطر المنحدر من السطح⁵ .

2.5 الحمامات العمومية :

كان ينتشر بالجزائر خلال العهد العثماني حوالي 12 حمام عادي و62 حمام بخاري مبنية كلها بطريقة موحدة تقريبا⁶ ، يتكلم هايدو عن أفخمها وهو حمام حسن باشا بن خير الدين الذي كان يقع في وسط المدينة ويقول أنه مشكل من أقبية متينة مكسوة ومبلطة كليا بالرخام ، يضم قاعتين مربعتين فسيحتين ، الأولى مخصصة لخلع الملابس أما الثانية فهي مقسمة إلى عدة غرف يمكن أن

¹ . Diego de Haëdo , op.cit , p 227 , 228 .

² . Laugier de Tassy , *Histoire d'Alger ...* , p 170 , 171 .

³ . Thomas Shaw , op.cit , p 294 .

⁴ . George Marçais , op.cit , p 448 .

⁵ . وليام شالر ، مصدر سابق ، ص 94 ، 95 .

⁶ . Thomas Shaw , op.cit , p 294 .

تضم الواحدة منها من 10 إلى 12 شخص بكل منها حنفيتان ، واحدة للماء الساخن وأخرى للماء البارد يصلهما الماء عبر أنبوبين من البرونز يدوران عبر كل الغرف¹.

3.5 الفنادق ، المقاهي والأسواق :

كانت توجد بالمدينة خمسة فنادق ملاكها خواص ، ويزعم تاسي أن هذه الفنادق كانت الوحيدة وما عداها لم تكن توجد أي فنادق في المدينة وكامل البلاد أيضا ، هذه الفنادق كانت عبارة عن عمارات كبيرة تضم عدة أفنية تتوزع حولها الغرف ، وعدة مخازن للسلع² ، إضافة إلى ذلك كانت توجد بعض المنازل خارج باب عزون ينزل بها القادمون من الأرياف لقضاء حوائجهم بالمدينة³.

أما المقاهي فقد كانت منتشرة في المدينة بوفرة ذلك أن القهوة كما يقول شالر كانت مشروب الترف لهذا الشعب الذي لا يشرب الخمر⁴ ، وقد بلغ عددها حوالي ستين مقهى ، الأشهر منها والأجمل كان يقع في حي البحرية قرب الجامع الجديد يسمى : " القهوة الكبيرة " ⁵.

أما عن الأسواق فقد كانت متمركزة في شارع باب الواد وباب عزون وقد بلغ عددها حوالي أربعين سوقا⁶ ، وقد كانت أغلبها متخصصة في سلع معينة ونذكر منها : السوق الكبير ، سوق الرحبة ، سوق الجمعة ، سوق الحدادين ، سوق النجارين ، الرصايسية ⁷ ، وقد كانت هذه الأسواق تتوفر على جميع أنواع السلع من كل أنحاء العالم ، وفي هذا الصدد يقول غرامون : " لأكثر من ثلاثمائة سنة شوهد ذهب المكسيك وفضة البيرو ، ألماس الهند ، حرير الشرق وأقمشته ، و سلع ومنتجات أخرى من مختلف أنحاء العالم ، كلها كانت تتدفق يوميا مثل السيل على أسواق الجزائر " ⁸ ، كما كان يوجد بالمدينة حوالي 34 مستشفى ومركز للعلاج⁹.

¹ Diego de Haëdo , op.cit , p 215 , 216 .

² Laugier de Tassy , **Histoire d'Alger** ... , p 181 , 182 .

³ Diego de Haëdo , op.cit , p 222 .

⁴ وليام شالر ، مصدر سابق ، ص 88 .

⁵ Henri Klein , op.cit , p 26 .

⁶ أندريه ريمون ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، 1991 ، ص 185 .

⁷ نور الدين عبد القادر ، مرجع سابق ، ص 134 .

⁸ Henri de Gramont , **Histoire d'Alger sous la domination turque** , Ernest Leroux , éditeur ,

Paris-France , 1887 , p II .

⁹ MM . Rozet et carette , op.cit , p 71 .

لقد تحدث حمدان خوجة أيضا عن محلات خاصة ببيع الكتب تسمى بالقيسارية ، وكان يجتمع بها النساخون وينسخون الكتب بطريقة يدوية ، لأنه لم تكن توجد أية مطابع صناعية حديثة بالجزائر طيلة العهد العثماني ، وبالتالي فقد كانت هذه المحلات بحسبه مركزا للإشعاع العلمي والثقافي والحضاري فضلا عن الجانب التجاري ، لكن الجزائر كلوزيل أمر بهدمها جميعا فهدمت بالفعل ، وهنا أظهر حمدان استغرابه الشديد واستهجانه لفعل الفرنسيين هذا ، وتساءل كيف للفرنسيين الذين يزعمون بأنهم جاؤوا لإدخال الحضارة لإفريقيا ثم يقومون بهذا الفعل الشنيع ، وعقب بالقول بأنهم ينوون إغراقنا في ظلمات الجهل عوضا عن نور الحضارة¹.

6. توزيع المناطق السكنية:

كما ذكرنا سابقا فإن مدينة الجزائر بنيت على جانب الجبل في هضبة شديدة الانحدار وقد كان لهذا الوضع أثر كبير في جغرافية المناطق السكنية وهندسة الدور بالمدينة ، إن عامل قلة رقعة الأرض لغرض البناء أدى إلى نمو المدينة في شكل محدود وفق خطوط مقدرة لها مسبقا².

لقد خضع توزيع المناطق السكنية لتقسيم مجتمع المدينة إلى طبقة حاكمة ضمت كبار رجال الدولة من الحاكم ، الوزراء ، ضباط الانكشارية وكبار القادة البحريين ، وطبقة الأهالي أو الرعية و كانت من الفئة المتوسطة ، وهكذا نجد أن الجزء المنخفض من المدينة اشتمل على الأنشطة الاقتصادية وكبرى المراكز السياسية والعسكرية فضلا عن الميناء ، في هذا الجزء نجد حي رؤساء البحر وكانت هناك مساكنهم الجميلة والفاخرة قرب الميناء ، وشيدت هنا أيضا مساكن كبار رجال الدولة والتي لا تزال بعضها قائمة إلى يومنا هذا ، كما نجد أيضا في هذه المنطقة ثكنات الانكشارية التي بنيت بشكل جميل وكان يجد فيها الانكشاريون كل وسائل الراحة ، نجد في هذا الجزء أن الشوارع كانت فسيحة منتظمة ومستوية نسبيا ، وفي غالب الأحيان غير مسقوفة وتتقاطع عند زاوية قائمة³.

كان يقوم التنظيم الاجتماعي والحرفي بمدينة الجزائر على غرار الكثير من المدن الإسلامية الأخرى على الطائفية والانتماء العرقي والجهوي ، أو الديني والمذهبي ، ومع ذلك فقد كان بالإمكان مشاهدة بعض الطوائف العرقية مثل الأندلسيين ، أو الدينية والمذهبية مثل اليهود والأباضية موزعة

¹ حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، تعريب محمد العربي الزيري ، منشورات ANEP ، الجزائر ، 2005 ، ص 245.

² وليام سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة : عبد القادر زبادية ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2006 ، ص 58.

³ أندريه ريمون ، مرجع سابق ، ص 213.

في مناطق مختلفة من المدينة ولم تكن تنحصر في مكان واحد ، وقد كان لكل حي سكني ممثله الخاص لدى السلطات المحلية ويسمى الشيخ ، بينما يرأس كل طائفة حرفية ممثل يدعى الأمين مثل أمين البنائين ، وقد كان لكل حرفة سوقها الخاص وسط سلسلة الأسواق التي كانت تتجمع في الشارع الرئيسي في الجزء السفلي من المدينة¹.

لقد استخدمت الجهة الغربية من المدينة وهي منطقة وعرة التضاريس شديدة الانحدار كمناطق سكنية للأهالي من الطبقة المتوسطة ، والذين كانوا يمارسون غالبا الصناعات الحرفية والتجارة في أسواق المدينة ، وقد كانت هذه المنطقة سكنية بصفة شبه مطلقة ، فقد خلت من أي تجمعات اقتصادية باستثناء عدد قليل من محلات الحرفيين² ، وهنا كانت الشوارع محدبة جدا و ضيقة لدرجة أنه في بعض الأماكن يمكن فقط مرور فارس على جواده ولا يمكن مرور شخصين متقابلين وجها لوجه إلا بالجنب³ ، كما أن المنازل المتقاربة كثيرا ما تتحد في الطوابق العليا نتيجة لبروزها لتشكل ممرا مسقوفا أو ما يعرف بالسباط ، هذه الأروقة المظلمة كانت تساعد المارين بالشارع على الاحتماء من أشعة الشمس⁴.

لم تكن توجد بالمدينة باستثناء ساحة الجينية التي بلغ محيطها 100 خطوة أية حدائق أو ساحات عمومية⁵ ، ويعبر تاسي عن هذه الظاهرة بقوله : " لا توجد أي ساحات أو حدائق بالمدينة بحيث أنه يمكننا وبدون مبالغة أن نجوب كامل المدينة عبر السطوح فقط ، وبالرغم من هذا الوضع فإن السرقة لا تنتشر بالمدينة لأنه إن وجد رجل غريب بالمنزل فإن مصيره الإعدام مباشرة"⁶. يحصي هايدو عدد المساكن في نهاية القرن 16 بـ 12200 مسكن بين كبير وصغير داخل الأسوار⁷ ، ويقدرها أرفيو بعده بخمسة عشر ألف مسكن في القرن 17¹، لكن بارادي لا يتكلم في نهاية القرن 18 ،

¹ مصطفى بن حموش ، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري (956 هـ / 1549 م - 1246 هـ / 1830 م) من واقع الأوامر السلطانية وعقود المحاكم الشرعية ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث دبي - الإمارات ، 2000 ، ص 27 ، 28 .

² أندريه ريمون ، مرجع سابق ، ص 214 .

³ Diego de Haëdo , op.cit , p 46 .

⁴ Evariste Bavoux , op.cit , p 137 .

⁵ Blismon , notice topographique sur le royaume et la ville d'Alger , imprimerie de blocquel , 2^{ème} édition , Paris - France , 1830 , p 44 .

⁶ Laugier de Tassy , Histoire de royaume d'Alger ... , p 165 , 166 .

⁷ Diego de Haëdo , op.cit , p 46 .

إلا عن خمسة آلاف مسكن داخل الأسوار² ويبدو أنه أخطأ في تقدير هذا العدد ، فنحن نعلم أن المساكن أخذت تزدهم داخل أسوار المدينة منذ بداية القرن 16 وأن عددها لا يمكن أن يتناقص أو يقل غالبا

وإذا عدنا إلى ما ذكره الوزان سابقا من أن مدينة الجزائر كانت تضم نحو أربعة آلاف مسكن مطلع القرن السادس عشر ، ومقارنته بما قاله هايدو من أن تعداد المساكن وصل في نهاية هذا القرن حوالي 12200 مسكن وهو ما يمثل حوالي ضعفي العدد الأول ، فإننا سنفهم بوضوح أن عمران المدينة قد تطور كثيرا في حوالي ستين سنة الأولى من إلحاق المدينة بالدولة العثمانية .

7. ضواحي المدينة :

تجمع المصادر التاريخية على أن مدينة الجزائر لم تضم خارج أسوارها أي تجمعات سكانية منتظمة ، وفي هذا الصدد يقول هايدو : " خارج أسوار المدينة لا نجد أي قرى أو تجمعات سكانية كما هو الحال في مدن أخرى باستثناء 25 منزلا قرب باب عزون تشكل شارعا واحدا باتجاه هذا الباب ، هذه المنازل بإسطنبولاتها يسكنها بعض الفقراء وينزلها بعض العرب القادمون لزيارة المدينة بأنعامهم ، وبعض هذه المنازل يسكنها موريسكيون يملكون أفرانا للجير ، وهذه المنازل هي كل ما تبقى من فحوص جميل كان يضم 1500 منزل قبل بضع سنوات ، لكن في عام 1573 قام الباشا أحمد أعراب بإزالة هذه الضاحية عندما قرر تقوية وتحصين هذا الجانب من المدينة خوفا من زحف الحملة التي حضرها دون خوان دوتريش للهجوم على تونس ، وبالفعل فقد تم الهجوم على تونس في ربيع تلك السنة"³ .

في المقابل كان يتوزع حول أسوار المدينة عدد كبير جدا من الحدائق والبساتين والتي كان يطلق عليها محليا اسم الجنان أو الفحص ، ولم تكن تخلو أي منها من منزل واحد على الأقل ، ويقول بارادي أن عدد هذه الجنان بلغ 16 ألف بستان في القرن 18 ، ويضيف بأنه يمكن أحيانا أن يوجد عدد كبير من هذه البساتين ملك لشخص واحد⁴ ويكون غالبا من ضباط الانكشوية أو من رياس البحر الذين كانوا يعدون من أغنى وأثرى طبقات المجتمع .

¹ Chevalier d'Arvieux , op.cit , p 225 .

² J.M Venture de Paradis , **Alger au 18^{ème} siècle (1788 – 1790) – mémoires , notes et observations** - , présentation du Abderrahmane Rebahi , édition Grand Alger Livres , Alger , 2006 , p 19 .

³ Diego de Haëdo , op.cit , p 48 .

⁴ Venture de Paradis , op.cit , p 19 .

يتشكل هذا الفحص من المنطقة الشرقية لإقليم الساحل وتقدر مساحته الإجمالية بما لا يقل عن 150 كلم² ، وهو بذلك يمتد لأزيد من 12 كلم عن الأسوار ، وقد كان ينقسم إلى ثلاثة مناطق حسب سجلات الوقف هي : فحص باب الوادي في الجهة الشمالية ، فحص باب الجديد في الجهة الجنوبية وفحص باب عزون في الجهة الشرقية¹ .

وقد اشتهر الفحص بإنتاج مختلف الخضر والفواكه ، وقد أورد الفرنسي توماس عددا من الأشجار التي كانت مغروسة في بستان إبراهيم كرغلي وهي البرتقال ، الليمون ، اللوز ، العنب ، الرمان ، التين ، التفاح ، الخوخ ، الكرز ، التوت الأبيض والأحمر والمشمش بالإضافة إلى مختلف أنواع الزهور ، وهذه المزروعات استطاع الفحص سد حاجات سكان المدينة من الخضر والفواكه ، أما سهول المتيجة ومرتفعات الساحل وباقي الأقاليم الأخرى فقد استغلّت في زراعة الحبوب وإنتاج الزيت ، الشمع ، المنتجات الحيوانية والأخشاب والتي كانت موجهة في الأساس للتصدير² .

خاتمة :

إذا ومن خلال كل ما سبق نلاحظ أن مدينة الجزائر قد عرفت طيلة العهد العثماني حركية كبيرة في مجال التعمير والبناء والتشييد ، وبذلك توفرت على كل المنشآت والمرافق الضرورية التي أهلتها واستحقت بها أن تصبح عاصمة للبلاد ، كما جعلها ذلك واحدة من أفضل المدن في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويمكن أن نقول بأن مدينة الجزائر كانت عاصمة عسكرية ، اقتصادية وتجارية ، دينية وعلمية ، سكانية وحتى زراعية ، فإذا نظرنا إلى جانبها العسكري والأمني فقد توفرت على كم هائل من المنشآت العسكرية الدفاعية التي جعلتها مدينة حصينة منيعة وأمنة ، وفي جانبها الاقتصادي والتجاري فقد توفرت على ميناء هام عزز حركة التبادل التجاري كما توفرت على الكثير من الأسواق والأنشطة الصناعية والحرفية ، وفي كل أرجاء المدينة انتشرت المساجد والمدارس ما جعلها مدينة علمية ودينية بامتياز ، وليس المساجد فقط ، بل حتى كنائس النصرى ومعابد اليهود ما يدل على الانفتاح الديني والحضاري والثقافي الذي كان سائدا بالمدينة .

ورغم هذا الوضع الذي قد يشعر نوعا ما بقليل من الصخب والضجيج فقد كانت أيضا مدينة هادئة وسكانية بامتياز ، فالجهة العليا من المدينة كان جلها مخصصا للمناطق السكنية ، وقد توفرت على كل المرافق العمومية التي سهلت حياة الناس من حمامات ، مستشفيات ، مقاهي ، عيون الماء

¹ ناصر الدين سعيدوني ، " فحص مدينة الجزائر - نوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية عشية الاحتلال - " ، مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 01 ، معهد التاريخ - جامعة الجزائر ، 1986 ، ص 91 ، 92 .

² نفسه ، ص 97 .

بل وكانت مدينة زراعية أيضا ، فقد كانت محاطة كليا -عدا جهة البحر- بالسهول والمروج الخضراء ، وانتشرت حولها الحدائق والجنان التي كانت تغرس بها كل أنواع المزروعات وتحمل منها يوميا لتموين المدينة بمختلف الخضر والفواكه .

إذا فإننا لا نبالغ حين نقول بأن مدينة الجزائر كانت واحدة من أشهر وأفضل مدن حوض البحر الأبيض المتوسط ، بل ومدن العالم أجمع في ذلك العصر .

الملاحق



- | | |
|-----------------|----------------------------|
| A - باب الجديد | 1- قصر الداوي |
| B - باب عزون | 2 - القصبة |
| C - باب البحر | 3 - شارع باب عزون |
| D - باب الجزيرة | 4 - دار السكة |
| E - باب الوادي | 5 - الجامع الجديد |
| | 6 - الجامع الكبير |
| | 7 - الميناء |
| | 8 - الجمارك |
| | 9 - شارع سيدي الجودي |
| | 10 - قصر الجنيّة سابقا |
| | 11 - شارع باب الوادي |
| | 12 - جامع علي بتشين |
| | 13 - دار النحاس |
| | 14 - دار مصطفى باشا |
| | 15 - جامع سيدي عبد الرحمان |
| | 16 - جامع سيدي رمضان |
| | 17 - دار حسن باشا |
| | 18 - دار عزيزة بنت الباوي |
| | 19 - دار خداوج العمياء |
| | 20 - دار الحمراء |
| | 21 - قصر رؤساء البحر |

خريطة مدينة الجزائر عشيّة
الاحتلال الفرنسي أي عام 1830 (عن هنري
كلاين بتصرف)

قائمة المصادر والمراجع :

باللغة العربية والمعرّبة :

- 1 - ابن حوقل أبو القاسم ، المسالك والممالك ، مطابع بريل (E.J Brill) ، ليدن (Leiden) هولندا ، 1872 .
- 2 - بورويبة رشيد ، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية ، ترجمة إبراهيم شيوخ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979 .
- 3 - بن حموش مصطفى ، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري (956 هـ / 1549 م - 1246 هـ / 1830 م) من واقع الأوامر السلطانية وعقود المحاكم الشرعية ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث دبي - الإمارات ، 2000 .
- 4 - بن عثمان خوجة حمدان ، المرأة ، تعريب محمد العربي الزبيري ، منشورات ANEP ، الجزائر ، 2005 ،
- 5 - الوزان الحسن ، وصف إفريقيا ، ج 2 ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، بيروت-لبنان ، 1983 .
- 6 - الزهار أحمد شريف ، مذكرات ، تحقيق وتقديم أحمد توفيق المدني ، دار البصائر ، الجزائر ، 2009 .
- 7 - حليبي عبد القادر علي ، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830 ، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي الجزائر ، 1972 .
- 8 - لوسور وويلد ، إيالة الجزائر ، تقديم وترجمة : محمد جيجلي ، شركة دار الأمة ، الجزائر ، 2002 .
- 9 - لعرج عبد العزيز ، "مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر" ، دراسات في آثار الوطن العربي ، مجلد 5 ، عدد 5 ، القاهرة ، 2002 .
- 10 - سبنسر وليام ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة : عبد القادر زبادية ، دل القصبة للنشر ، الجزائر ، 2006 .
- 11 - سعيدوني ناصر الدين ، " فحص مدينة الجزائر - نوعية الحياة الاقتصادية ولا اجتماعية عشية الاحتلال - " ، مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 01 ، معهد التاريخ - جامعة الجزائر ، 1986 .
- 12 - ريمون أندريه ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، 1991 .

باللغة الأجنبية :

- 1 - Arvieux Chevalier , **Mémoires** , Tome 05 , Charles-Jean-Baptiste libraire , Paris-France , 1735 .

- 2 - Bavoux Evariste , **Voyage politique et descriptif dans le nord de l'Afrique** , Tome 02 , édition Borckhaus et Avenarius , Paris - France , 1841 .
- 3 - Berbrugger Adrian , " Les casernes des janissaires " , **revue africaine** , volume 03 , A. JOURDAN , libraire - éditeur , Alger , 1858 .
- 4 - Blismon Blocquel S.F , **notice topographique sur le royaume et la ville d'Alger** , imprimerie de blocquel , 2^{ème} édition , Paris - France , 1830 .
- 5 - Carteron .C , **Voyage en Algérie** , J Hertz el librairie éditeur , Paris - France , 1866 .
- 6 - Devoulx Albert , **les édifices religieux de l'ancien Alger** , Typographie Bastide , Alger , 1870 .
- 7 - Devoulx Albert , **El Djazair , Histoire d'une cité d'Icosium à Alger** , présentation du : Badredine Belkadi et Mustafa Benhamouche , ENAG édition , Algérie , 2003 .
- 8 - Gramont Henri , **Histoire d'Alger sous la domination turque** , Ernest Leroux , éditeur , Paris-France , 1887 .
- 9 - Haëdo Diego , **Topographie et histoire général d'Alger** , traduit de l'espagnol par : MM. Dr. Monnereau et A. Berbrugger , éditions Grand Alger Livres , 3^{ème} édition , Algérie 2007 .
- 10 - Klein Henri , **feuillets d'El-Djazair** , Tome 01 , édition du Tell , Blida - Algérie , 2003 .
- 11 - Mac-Carthy .O , **Alger et ses environs** , 2^{ème} partie , Adolphe Jourdan librairie éditeur , Alger , 1881 .
- 12 - Marçais George , **L'architecture musulmane d'occident (Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne et Sicile)** , arts et métiers graphique , Paris - France , 1955 .
- 13 - Paradis J.M Venture , **Alger au 18^{ème} siècle (1788 – 1790) – mémoires , notes et observations** - , présentation du Abderrahmane Rebahi , édition Grand Alger Livres , Alger , 2006 .

14 - Rozet Claude-Antoine et Carette Ernest , **L'Algérie** , FIRMIN DIDOT FRÈRES éditeurs , Paris - France , 1850 .

15 - Shaw Thomas , **Voyage dans la régence d'Alger** , traduit de l'anglais par : J. Mac Carthy , MRALIN éditeur , Paris - France , 1830 .

16 - Tassy Laugier , **Histoire du royaume d'Alger** , édition Henri du Sauzet , Amsterdam-Hollande , 1725 .

17 - Tassy Laugier , **Histoire d'Alger** , PILTAN libraire , 2^{ème} édition , Paris - France , 1830 .